الحق في نهج البلاغة

حسن موسى الصفار

قال الامام علي " " عليه السلام ":

" فلا يكن افضل ما نلت فى نفسك من دنياك بلوغ لذة او شفاء غيظ، ولكن اطفاء باطل او احياء حق .

الحق يعني : الامرالثابت الصحيح . و يقابله الباطل اى : الشيء الخطأ الغير ثابت الوجود .

و بهذا فالحق اطار شامل يتسع لكل قضايا الحياة الفكرية والعملية . .فهناك فكرة حق و فكرة باطل ، و كلمة حق و كلمة باطل ، و عمل حق و عمل باطل ، و موقف حق و موقف باطل .

فالفكرةالتى تتوافق مع الواقع هى فكرة حق ، و الكلمة التى تحكى الواقع هى كلمة حق والعمل الذى ينبثق من الواقع هو عمل حق ، و الموقف الذى يفرضه واقع الامر هو موقف حق . و يعبر الامام عن شمولية الحق بقوله :

" حق و باطل و لكل اهل "

و على الانسان ان يتبع الحق فى كل شيء فكريا و عمليا ، فلا يسمح لنفسه باعتناق الفكرة الباطلة او التفوه بالكلمة الباطلة او ممارسة العمل الباطل . . لانه

حينئذ يخدع نفسه و يضلها و يظلمها . . . و لانه اخيرا سيصطدم بالامر الواقع الثابت فالكفار حينما خدعوا انفسهم و اعتقدوا بعدم وجود بعث وحساب و عقاب ، لم تغير عقيدتهم الباطلة واقع الحق ، بل وجدوا انفسهم فجأة امام الامر الواقع و لم يسعهم حينئذ الا الخضوع والاعتراف ولكن بعد فوات الاوان . يقول القرآن الحكيم :" و يوم يعرض الذين كفروا على النار اليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلئ و ربنا . قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون " (الاحقاف ٣٤) .

و حين اعتقد الشيوعيون ان الملكية الفردية و حب الذات ليست غريزة اصيلة في الانسان و انما هي طبع مكتسب يمكن الغاؤه و نسفه ، اصطدموا بالواقع بعد نجاح ثورتهم الشيوعية ، و اضطروا الى التراجع عن تطبيق نظريتهم الداعية الى الغاء جميع آثار الملكية الفردية ، مبررين تراجعهم بالحاجة الى فترة تمهيدية يطلق عليها المرحلة الاشتراكية .

والغربيون استمروا فترة طويلة و هم يعارضون تطبيق حكم الاعدام على القاتل ، ظانين ان في السجن المؤبد عقوبة رادعة تكفي عن الاعدام القاسي ،ولكنهم اخيرا استسلموا امام الواقع و ثبت لديهم ان في القصاص حياة ، و ان القتل انفى للقتل ، و من جديد ارتفعت في الغرب نداءات الرجوع الى حكم الواقع ، و نفذ اول حكم بالاعدام على القاتل من فترة قريبة .

في هذا المجال يقول الامام علي " عليه السلام " في نهج البلاغة :

" من صارع الحق صرعه "

" من ابدى صفحته للحق هلك "

" و انه لن يغنيك عن الحق شيء ابدا " .

ماهو مقياس الحق ؟ :

لعل اكثر الناس يرغبون في اتباع الحق و يحبون الالتزام به ، ولكن المشكلة تكمن في طريقة التعرف على الحق و تشخيص مواقفه .

فالكثرة الغالبة من الناس تستعمل مقاييس خاطئة للتوصل الى الحق ،فتوصلهم الى الباطل بينما يعتقدون في انفسهم انهم على الحق و انهم يجسدون مواقفه ، و هؤلاء يصفهم القرآن بانهم افشل الناس و اخسرهم اعمالا . يقول تعالئ : " قل هل ننبئكم بالاخسرين اعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا و هم يحسبون انهم يحسنون صنعا " (الكهف ١٠٤) .

و حينما يتحدث الامام على عن مشكلة الخوارج يشخصها بخطئهم في استعمال المقاييس الموصلة الى الحق رغم محبتهم لاتباع الحق يقول " عليه السلام ": " لاتقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فاخطأه كمن طلب الباطل فادركه .

و الان ما هو مقياس الحق عند الامام على ؟ .

هل المقياس كثرة الاصوات والاتباع ؟ كما يظن اكثر الناس حيث يستدلون باتجاه غالبية الناس و ميلهم الى امر ما على احقية ذلك الامر .

ان القرآن الكريم يرفض هذا المقياس و يقول: "و اكثرهم للحق كارهون" وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين" " ان تتبع اكثر من فى الارض يضلوك ".

و يقول الامام علي: " لاتستوحشوا فى طريق الهدى لقلة اهله " . و في كلماته التى ودع بها اباذر الغفارى يقول عليه السلام : "لايوحشنك الاّ الباطل ولا يؤنسنك الا الحق "

و هل المقياس هو راى شخصيات المجتمع و كبار القوم ؟

فاذا اردنا ان نعرف موقف الحق فى قضية ما فعلينا ان نرجع الى كبار الجماعة و شخصيات الامة ، و رايهم حينئذ هو الحق الاكيد ؟! .

ان هذا المقياس هو الاخرخاطئ ، لاحتمال جهل هؤلاء الشخصيات بموقف الحق اوانحرافهم عنه ، فيقودنا اتباعهم الى جحيم الضلال والعذاب و يجسد القرآن لنا هذه الحقيقة بقوله تعالى : " يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا اطعنا الرسولا . وقالوا ربنا انا اطعنا سادتنا و كبراءنا فاضلونا السبيلا " (الاحزاب ٦٦-٦٧).

و قد عانى الامام على نفسه من هذه المشكلة فى صراعه مع طلحة والزبير و السيدة عائشة والذين كانوا يمثلون كبار الامة و شخصياتها ولكن موقفهم لم يكن مطابقا للحق ، و رغم ذلك فقد انخدع بهم كثير من الناس و شكك آخرون ، لانهم لم يملكوا المقياس الواقعي للحق ، بل اعتبروا هؤلاء مقياسا لمعرفة الحق .

فى نهج البلاغة ان الحارث بن حوط جاء الى الامام علي " عليه السلام " قائلا: اترانى اظن اصحاب الجمل كانوا على ضلالة؟ فقال الامام: يا حارث انك نظرت تحتك ولم تنظر فوقك فحرت . انك لم تعرف الحق فتعرف من اتاه و لم تعرف الباطل فتعرف من اتاه .

فهل المقياس اذا سيرة الاباء و الاجداد ؟ حيث يقلد الشاب آباءه و يسير على طريقتهم كماهو حال اكثرية الناس فاذا ولد من ابوين مسلمين اصبح مسلما اوتوماتيكيا

و اذا ولد من ابوين سنيين صار سنيا طبيعيا ، و اذا وجد ابويه على طريقة ما فلامحيص له عنها !! .

ان هذا المقياس هو مقياس تافه يعطل لدى الانسان تفكيره و حريته . و لقد ندد القرآن بهذا النوع من التقليد الاعمى ، و سخر من اتباعه الذين يقولون: " انا وجدنا اباءنا على امة و انا على آثارهم مقتدون " .

و هذا الامام علي بن ابي طالب " عليه السلام " في نهج البلاغة يذكرنا بان الطليعة المؤمنة في صدر الاسلام ليس فقط خالفت اراء ابائها و انما كافحت و ناضلت ضدها يقول: " ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا و ابناءنا و اخواننا و اعمامنا مايزيدنا ذلك الا ايمانا و تسليما " .

و اذا لم يكن مقياس الحق هو راي الاكثرية ، ولا موقف الشخصيات ولا سيرة الاباء والاجداد فما هو المقياس اذا ؟

ان مقياس الحق شيئان :

الاول: العقل و الذي انما منحه الله للانسان حتى يفكر به و يهتدي بضوئه الى طريق الحق ، و لذلك يحث القرآن الكريم الناس على استعمال عقولهم والتفكير بها للوصول الى الحق . فيقول للمشككين في صدق رسالة النبي محمد "ص" :

" قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى و فرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدي عذاب شديد " (سبأ ٤٦)

و في آية اخرى يخاطب المشككين في عظمة الله تعالى :" اولم يتفكروا في انفسهم ما خلق الله السماوات والارض و ما بينهما الا بالحق و اجل مسمى "

الثاني: الوحي . و هل يوحي الله لعباده غير الحق او يامرهم بالباطل ؟ .

انه لاينبغي للانسان ان يشك في ان امر الدين و رايه هو الحق الصحيح الذي لاجدال فيه يقول تعالى: " الحق من ربك فلاتكونن من الممترين " و في اية اخرى:" يا ايها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم".

و في نهج البلاغة يكثر الامام و يكرر وصف النبي "ص" بالهداية الى الحق و بان الهدف من بعثته هو تبيين الحق للناس. يقول " عليه السلام ": " ان الله بعث محمدا بالحق حين دنا من الدنيا الانقطاع و اقبل من الاخرة الاطلاع " ، " ارسله بامره صادعا ، و بذكره ناطقا فأدى امينا ، و مضى رشيدا و خلف فينا راية الحق".

البحث عن الحق و اتباعه :

فيجب على الانسان ان يفتش عن الحق و يبحث عنه ازاء اى قضية او امر

مستخدما المقياس الصحيح للتعرف على الحق ، و لو كلفه ذلك جهودا و عناءً ، يقول الامام " عليه السلام ": " و خض الغمرات للحق حيث كان " .

ففي بعض الاحيان يغلف الباطل بغلاف الحق ، و يلبس مسوحه ، و هومانعانى منه في وقتنا الحاضر حيث ترتفع سعارات الحق بمختلف العناوين و المظاهر كشعار الوحدة والحرية والعدالة و التقدم ، ولاشك ان هدف هذه الشعارات بذاتها هدفحق ولكن من يرفعها انما يستغلها من اجل الباطل . فعلى الانسان ان يكون ذكيا واعيا لاتخدعه الشعارات ولاتغره المظاهر .

ويلفتنا الامام الى هذه الحقيقة الهامة (استغلال الشعارات) حينماسمع شعار الخوارج : لاحكم الا لله . و هل يوجد مسلم يعترض على هذا الشعار او يناقش فيه . لذا قال الامام : " كلمه حق يراد بها باطل " .

والاخطر من ذلك ان يمزج الحق بشيء من الباطل ، او تطعم قضية باطلة بشيء من الحق ، فهنالك يسهل الانخداع و يمكن التضليل الا للواعى الذى يستطيع ان يشرح القضية و يكشف عمكن الباطل فيها .

فمثلا : رياضة الجسم و تقوية عضلاته امر حق ، و لكن صرف هذا المقدار الطائل من الاوقات والجهود والاهمام بالرياضة و بالشكل المعروف حاليا هذا امر باطل . ولكنهما امران ممتزجان ولذلك امكن استقطاب الناس و انخداعهم .

و قد نبه الامام "عليه السلام " الى هذه الظاهرة الخطيرة بقوله : " فلو ان الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين ، و لو ان الحق خلص من لبس الباطل انقطعت عنه السن المعاندين ، و لكن يؤخذ من هذا ضغث و من هذا ضغث فيمزجان ، فهناك يستولى الشيطان على اوليائه و ينجو " الذين سبقت لهم من الله الحسنى " .

و يقول ايضا : " و انما سميت الشبهة شبهة لانها تشبه الحق".

فاذا عرف الانسان الحق ، وجب عليه اتباعه والتزام موقفه ، و ان كان ذلك يتعارض مع مصالحه و اهوائه . و هنا تكمن مشكلة الحق فى انه يتعارض غالبا مع انانية الانسان واهوائه ، مما يجعل الانسان يفارق موقف الحق و يتبع الباطل اشباعا لشهواته و غرائزه .

" يقول الامام علي " عليه السلام ": ان الحق ثقيل مرئ و ان الباطل خفيف و بيء " .

و يقول ايضا : " ان افضل الناس عندالله من كان العمل بالحق احب اليه و ان نقصه و كرثه ، من الباطل و ان جر اليه فائدة وزاده " .

مسئوليتنا تجاه الحق :

نستخلص مما سبق ان مسؤوليتنا تجاه الحق تتلخص فى النقاط التالية :

١ــ البحث عن الحق " وخوض الغمرات للحق حيث كان "

٢ــ اتباع الحق " ان افضل الناس عندالله من كان العمل بالحق احب اليه . . . "

٣ــ الوقوف الى جانب الحق و فى جبهته ، فلايصح للانسان ان يقف موقف المتفرج من صراع الحق والباطل . بل يجب عليه ان يدخل المعرفة الى جانب الحق . و الا تحمل مسؤولية خذلان الحق و انهزامه . يقول " عليه السلام " فى الذين اعتزلوا القتال معه ضد الباطل : " خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل :

و اذا انتصر الباطل فهل سيسلم المتفرجون منه ، و هل سيتركهم الباطل يمارسون الحق بحريتهم ؟ كلا . يقول الامام " لو لم تتخاذلوا عن نصر الحق ، و لم تهنوا عن توهين الباطل ، لم يطمع فيكم من ليس مثلكم ، و لم يقو من قوى عليكم ".

٤ــ العمل من اجل الحق حيث يكرس الانسان حياته من اجل احقاق الحق و مقاومة الباطل . يقول الامام : " فلايكن افضل مانلت فى نفسك من دنياك بلوغ لذة او شفاء غيظ ولكن اطفاء باطل او احياء حق " .

و ما الشهادة والمنصب والامتيازات الا وسائل تعين الفرد على تحقيق اهداف الحق . اما اذا تحولت هذه الوسائل الى اهداف بحد ذاتها فقد خسر الانسان حياته .

قال عبدالله بن عباس دخلت على اميرالمؤمنين بذى قار و هو يخصف نعله فقال لي: ما قيمة هذا النعل ؟ فقلت: لاقيمة لها إفقال لي: والله لهى احب الى من امرتكم الا ان اقيم حقا او ادفع باطلا .